دور الثقافة في التغير الاجتماعي والتنموي

د. الناجي محمد حامد *

المقدمة

تكتسي المسألة الثقافية في عالمنا اليوم ، وفي مختلف الجهات والاقطار أهمية خاصة، فما من بلد في عالم اليوم إلا ويعاني بصورة ما وبهذه الدرجة أو تلك ، مظهراً أو مظاهر عدة تتداخل كلها في تكوين هذه المسألة أو تشكل إحدى تجلياتها. حتى أصبح من الجائز القول أنّ المسألة الثقافية بمعناها الواسع هي اليوم المحرك الأساسي لعجلة التنمية والنهوض الحضاري. وعلى حد تعبير الجابري[1]، "المسألة الثقافية واذا كان لنا أن نأخذ بمعطيات عالمنا الراهن فإن المعطى الذي يفرض نفسه هو أن المسألة الثقافية لم تعد في الظل، لم تعد تابعاً ، بل إنها شئنا أم أبينا، تطغى على سطح الأحداث أو على الأقل تزاحم وتضايق هذا السطح غيرها من المعطيات " بل تحدد مسار الاحداث واتجاهاتها المختلفة وتطبعها بطابعها الخاص وفقاً للخصوصيات الثقافية المنتجة لها.

في كثير من جهات العالم اليوم انقلبت الأدوار بين الاجتماعي والسياسي والثقافي . لقد كان التصور السائد من قبل على الأقل إلى النصف الثاني من القرن الماضي، أنّ العلاقة بين هذه المستويات الثلاثة الرئيسية في الحضارة المعاصرة، علاقة تراتبية يتصدرها الاجتماعي أولاً ثم السياسي ثانياً ثم الثقافي أخيراً ،"إن هذا يعني أنّ علاقة الفعل والانفعال بين هذه المستويات الثلاثة، هي على الرغم من تداخلها وجدليتها، علاقة يتجه التأثير فيها بصورة اجمالية من العلاقات الاقتصادية – الاجتماعية التي تنعكس مباشرة على المستوى السياسي فتحدد شكل العلاقات فيه لينتهي التأثير إلى المستوى الثقافي حيث يجد في الوعي والثقافة السياسية والاجتماعية أي الايديولوجيا تعبيره النظري الذي يكون على هذه الدرجة أو تلك من المطابقة مع الواقع الاقتصادي والاجتماعي القائم [2]. أما اليوم فلا أحد يستطيع أن ينكر أنه حدث منذ عقد ونيف من السنين أن تراجعت هذه الشعارات ومثيلاتها لفائدة الشعارات التي تطرح المسألة الثقافية أو جانباً من جوانبها باعتبارها معطى أساسي في مقدمة تلك التراتبية.

لقد أصبح الارتباط قولاً وفعلاً وبعنف أحياناً بالطائفة والعشيرة والمذهب الديني ، وصار تأكيد الارتباط بهذه العناصر التي تدخل في تكوين المسألة الثقافية كما تطرح اليوم المظهر الرئيسي والبارز في مايشهده العالم الراهن من تحركات ونزاعات جعلت المعطى الثقافي في قائمة الأولويات والاحتياجات

---

* أستاذ مشارك، معهد إسلام المعرفة (إمام)، جامعة الجزيرة، معهد إسلام المعرفة

[1] مُحَمَّد عابد الجابري، المسألة الثقافية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، 1999

[2] مُحَمَّد عابد الجابري ، نفس المرجع السابق، ص. 14

الانسانية[3] ، بل غدا موضوعاً اجتماعياً وثقافياً واعلامياً وعلمياً يحلل ويناقش في أمهات الكتب والمراجع تحت عناوين متنوعة " عودة المكبوت"و " عودة المقدس " و"صدام الحضارات " في العالم الغربي ، والصحوة الاسلامية والتأصيل واسلامية المعرفة في العالم العربي والاسلامي .

إنّ الوضع الثقافي الدولي الراهن يكرس الآن استراتيجية ثقافية جديدة، لقد حل الاختراق محل الاستتباع فتحولت التبعية الثقافية إلى عملية تكريس وترسيخ ثقافة الاختراق وخاصة بعد انسحاب الشيوعية كمعسكر وكايديولوجيا من الميدان ، وانفراد الغرب الرأسمالي بقيادة العالم فإن الاستقلال السياسي والثقافي والايديولوجي الذي كانت تتمتع به بعض بلدان العالم الثالث، بما فيها البلدان الاسلامية لم يعد يجد سنداً يسنده أو يستند إليه فأصبحت العلاقة السياسية والثقافية والايديولوجيا المتاحة من الخارج وحيدة الاتجاه ومفروضة عبر وسائط الإعلام وشبكة الاتصالات عبر الأقمار الصناعية والفضائيات التي غيرت المفاهيم والتوقعات والانتظارات التي كانت سائدة في السابق بل جعلت مفهوم السيادة الوطنية في ورطة تاريخية لافكاك منها.

والثقافة في واقع الأمر صناعة إنسانية بحتة واختراع بشري خالص ، فهي فاصل نوعي بين الانسان وسائر الأحياء التي تقاسمه الحياة على هذه الأرض ومن خصائص الثقافة أنها متنوعة وأنّ لكل مجموعة ثقافتها الخاصة وهذا مايسمى بنسبية الثقافة [4]. ومن هنا تعتبر الثقافة ظاهرة انسانية ومحور الحياة الاجتماعية وظيفياً وسلوكياً . إنّ هذا التصور يقر علاقة التداخل والتكامل بين الثقافة والتنمية. فالثقافة تمكن من إعداد الانسان المدرك لحقيقة وجوده والواثق بقدرته على التغيير نحو الأفضل وكذلك التنمية بمعناها الشامل. وعليه فإنّ هذا البحث يسعى إلى معالجة علاقة المسألة الثقافة بالتنمية هذا من جهة ومن جهة ثانية لابد من تحديد مفهوم الثقافة لتجنب المتاهات التي قد يوقعنا فيها مفهوم الثقافة اذا أخذناه هكذا مطلقاً بدون تحديد. والسؤال الذي يفرض نفسه في هذا المقام ماهو دور الثقافة في التنمية ؟ وماهي العلاقة بين ثقافة التنمية وتنمية الثقافة، الغايات والاهداف؟

تعريف المفاهيم:

مفهوم الثقافة:

من الواضح أنّ هناك عدم اتفاق كامل في الرأي حول مفهوم الثقافة كمصطلح حيث يراه العامة وكذلك العلماء من زوايا وعناصر مختلفة وفقاً لاختلاف المنطلقات الفكرية للدارسين لهذا المصطلح ولكن يظل تعريفها، مهما اتسع قاصراً عن الاحاطة بكل الجوانب المكونة للثقافة ومثيراً للجدل بل ولاحتمالات

---

[3] السيد ولد أباه ، اتجاهات العولمة ، اشكالات الألفية الجديدة ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، 2001م.

[4] المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الثقافة ودورها في التنمية ، تونس 1996 ، عن أحمد صالح البطاينة ، الإعلام الثقافي في عصر التنمية ، ص.206

اللبس واختلافات التأويل. ولذلك سوف لن نتعرض لكل التعريفات في هذا البحث ، بل سنكتفي بإبراز أشملها معنى. لقد تعددت التعريفات العربية وغير العربية التي أثارت اشكالية تعريف الثقافة. وقد ادخل علماء الانثروبولوجيا كلمة ثقافة ضمن القاموس العلمي ووضعوا تعريفات عديدة لها منذ أواسط القرن التاسع عشر. وانتهوا الى أنها "جملة الانجازات الانسانية" . إنّ أبرز تعريف أعطى للثقافة هو تعريف ادوارد تايلور فهو أول من أعطى الثقافة معناه الاصطلاحي في كتاب له بعنوان الثقافة البدائية (Primitive Culture) حيث يعرفها بأنها " هي تلك الوحدة الكلية المعقدة التي تشمل المعرفة والإيمان والفن والأخلاق والقانون والعادات بالإضافة الى أي قدرات وعادات أخرى يكتسبها الانسان بوصفه عضواً في المجتمع"[5]. وفي كتابه الانثربولوجيا أضاف تايلور أنّ الثقافة بهذا المفهوم ، هي شيء لايمتلكه الانسان[6].

كذلك فإنّ عالمي الانثربولوجيا الأمريكيين في كتابهما الثقافة : مراجعة نقدية للمفاهيم والتعريفات، قدما تعريفاً بأنّ " الثقافة هي تجريد مأخوذ من السلوك الملموس ولكنها ليست سلوكاً بذاتها " وقد أدى هذا التعريف الى إثارة تساؤلات حول حقيقة الثقافة بوصفها مجردة فكيف بالتالي لشئ مجرد لا وجود له أن يكون موضوعاً لعلم وبحث ، كثير من حاجيات الثقافة أشياء محسوسة وملموسة. وقد حاول ليزلي وايت (Leslie White) أن يقدم حلاً لهذا الإشكال حين أكّد أنّ القضية ليست قضية شيئاً حقيقياً أو مجرداً بل القضية هي في السياق الذي يجري فيه التأويل، فهي تؤلف السلوك وعندما ينظر اليها ليس من خلال علاقتها بالإنسان بل علاقتها بعضها ببعض ، فهي تصبح ثقافة، ومن هنا يمكن القول بأن (الثقافة هي الاسم الذي يطلقه الدارسون على أنواع من الأشياء والأحداث التي تعتمد على "الترميز" أي على النطق والكلام والتي ينظر اليها في سياق يتجاوز ماهو بشري)[7]. فمن الصعب تحديد مصطلح الثقافة أو ايجاد تعريف محدد لها . ويؤكد على هذه الصعوبة موقف كاتب منهجي مدقق مثل ريموند وليامز في مقدمة كتابه " الثقافة والمجتمع " إذ يعترف بصعوبة تحديد مصطلح الثقافة وهو الذي يعد من أوائل الكتاب الذين يؤكدون على أهمية تحديد المصطلحات والكلمات المفتاحية تحديداً صارماً في بدء كل دراسة، حيث يقول ريموند وليامز عن موضوع الثقافة " نظراً لاتساع مرجعيتها يبدو ضرورياً – على أية حال – إقامة التساؤل منذ البدء على قاعدة عريضة وكنت في البدء نويت أن أحافظ على التصاق

---

[5] كليفورد غيرتز ، تأويل الثقافات ، ترجمة مُحَمَّد بدوي ، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ، 2009، ص. 8

[6] كليفورد غيرتز، المرجع السابق، ص.8

[7] كليفورد غيرتز ،تأويل الثقافات ، مرجع سابق ، ص.9-10.

شديد بالثقافة نفسها ولكن كلما تفحصتها بشكل وثيق كان علي أن أعيد ترتيب حدود إحالاتي"[8]. كذلك يعرفها كلايد كلوكون في كتابه مرآة الانسان (Mirror for Man) حيث قدم فيه تعريفات متعددة ومختلفة للثقافة منها : ("الطريقة الكلية لحياة شعب" " الميراث الاجتماعي الذي يكتسبه الفرد من جماعته " " طريقة تفكير وشعور واعتقاد" " تجريد قائم من السلوك " " نظرية يقدمها عالم الانثربولوجيا حول الطريقة التي يتصرف بها شعب ما" " مخزن للمعارف المشتركة " " مجموعة من التوجهات الموحدة المقاييس حيال المشكلات المتكررة " " السلوك المكتسب " " آلية للضبط المعياري للسلوك " " مجموعة تقنيات تهدف للتأقلم مع البيئة الخارجية ومع الأشخاص الاخرين على حد سواء" " راسب من رواسب التاريخ")[9]. يقول كليفورد غيرتز في مواجهة هذ الكم من التعريفات الهائلة للثقافة "في مواجهة هذا النوع من التفشي التنظيري سيكون من المستحسن وفي موقف متقدم أن نقدم مفهوماً للثقافة يكون محدوداً نوعا ما وليس معيارياً بالكلية ، وهو مفهوم مترابط داخلياً على الأقل"[10]. وتبدو إضافة كليفورد حيث يقول " إن مفهوم الثقافة الذي اعتنقه هو بالأساس مفهوم سيميائي (semiotic) ويضيف بأنه مقتنع مع ماكس فيبر بأنّ الانسان هو حيوان عالق في شبكات رمزية نسجها بنفسه حول نفسه وبالتالي أنظر للثقافة على انها هذه الشبكات وأرى أنّ تحليلها يجب أن لايكون علماً تجريبياً يبحث عن قانون بل علما تأويلياً يبحث عن معنى .. شرح التعبيرات الاجتماعية وإجلاء غموضها الظاهر على السطح "[11]. وهكذا فالثقافة حسب كلفورد غيرتز "هي تلك الوثيقة المتمثلة بالأفعال وهي شئ علني وليس بالفكرة الباطنية .. وعلى الرغم من كون الثقافة متعلقة بما هو فكري فهي ليست شيئاً في داخل رأس المرء وعلى الرغم من كونها ليست شيئاً مادياً فهي ليست كياناً باطنياً محجوباً ولذلك فإنّ تلك المناظرة نجد لا نهاية لها ، وهي كذلك لأنها غير قابلة للإنهاء بالفعل بين علماء الانثربولوجيا حول ما اذا كانت الثقافة ذاتية (Subjective) أو موضوعية (Objective) "[12]. فالثقافة هي شيء علني لأنّ المعنى هو شيء ظاهر علني. فأنت لا يمكنك أن تغمز أو تقلد غمزة من دون أن تكون عالماً بهذه الغمزة وبكيفية القيام بها . إنّ هذه المقاربة التأويلية التي أسسها كليفورد تصنف الثقافة "بأنها رؤية الأشياء من وجهة نظر الفاعل أو تحليل من الداخل " [13]. وعليه عملية التحليل الثقافي حسب كليفورد هي " عملية في

---

[8] المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم مرجع سابق، ص68.
[9] كليفورد غيرتز ، مرجع سبق ذكره ، ص. 81-82.
[10] كليفورد غيرتز، مرجع سبق ذكره ،ص. 82
[11] كليفورد غيرتز، مرجع سبق ذكره ، ص. 82
[12] كليفورد غيرتز، مرجع سبق ذكره ، 91- 92
[13] كليفورد غيرتز ، مرجع سبق ذكره، ص. 99

تطورها لا تتخذ شكل منحنى صاعد تتراكم فيه المكتشفات بشكل مستمر، بل هي تتخذ شكل اندفاعات غير متصلة مع أنها مترابطة في سياق متوال من الحلقات تزداد جرأة مرة بعد مرة"[14].

وتعرفها جيهان رشتي " بأنها الشئ الذي يصنعه البشر من الظروف البشرية المحيطة وهي القيم والتجارب وقواعد السلوك وغير ذلك من الأمور التي ينقلها البشر عبر أجيال أو خلال فترة زمنية مدتها أكثر من جيل لأنّ لها قيمة معينة في استمرار المجتمع وتحقيق الأمن لأفراده "هناك علاقة وطيدة بين الثقافة والسياسة ، وهي ليست علاقة بسيطة أو ميكانيكية. فالثقافة يجب أن تحلل إلى أشكال مختلفة ، سواء كانت ثقافة رفيعة أو بسيطة ، ثقافة نخبوية أو ثقافة شعبية، فلسفة أو شعور مشترك، يجب أن تحلل وفقاً لفعاليتها في تماسك الأشكال القيادية المتعددة "[15] وفي نفس السياق تقسم رشتي الثقافة إلى قسمين متميزين؛ الثقافة الموضوعية والثقافة الذاتية والتفرقة والتمييز بين الثقافتين مستمد من التفاعل الذي يمكن ملاحظته بين البشر والظروف المحيطة بهم . فالثقافة الموضوعية مكونة من الاشياء المصنوعة والتكنولوجيا التي تتيحها " كالادوات والمباني ، واماكن السكن ، انماط المواصلات والرسم وغيرها" أما الثقافة الذاتية فهي العمليات الادراكية البشرية " القيم والصور الذهنية المنطبعة والاتجاهات والمشاعر والدوافع والمعتقدات وبشكل أكثر عمومية المعاني"[16]

ويقسم البعض الثقافة إلى سبعة أقسام وهي[17]: الوصفية ، التاريخية ، المعيارية ، السيكلوجية ، البنيوية ، التطورية ، الشمولية .

1 – الوصفية:

تتميز التعريفات الوصفية للثقافة بالتركيز على تعدد محتويات الثقافة متأثرة بتعريف تايلور "ذلك الكل المركب المعقد الذي يشمل المعلومات والمعتقدات والفن والأخلاق والعرف والتقاليد والعادات وجميع قدرات الانسان"[18].

2- **التاريخية** :

تنفرد التعريفات التاريخية بأنها تجعل التراث الاجتماعي أو التقاليد في بؤرة اهتمامها ويتجلى ذلك باستعراضنا لأهم التعريفات التاريخية. يرى "مالينوفسكي" إن التراث الاجتماعي هو المفهوم الرئيسي

---

[14] كليفورد غيرتز، مرجع سبق ذكر، ص.118.

[15] Tony Bennett, Culture, Ideology and Social Process : A Reader, Set Book (LONDON :Batsford Academic and Educational in Association with the open University Press, 1985).

[16] المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المرجع السابق ،ص. 69

[17] سامية حسن الساعاتي ، الثقافة والشخصية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1983،ص.34.

[18] سامية حسن الساعاتي ، الثقافة والشخصية ، المرجع السابق ، ص.35.

من الانثروبولوجيا الثقافية ، وغالباً ما يطلق عليه مصطلح الثقافة، فالثقافة تضم الصناعات الموروثة والبضائع والسلع والعمليات التكنولوجية والأفكار والعادات والقيم". أما" رالف لنتون " فيعتقد من جهته :" أنّ الوراثة الاجتماعية هي الثقافة، فالثقافة كاصطلاح عام تعني الوراثة الاجتماعية للبشرية بينما يعني الاصطلاح النوعي صفة معينة من الوراثة الاجتماعية.ويذهب بارسونز إلى أن:(الثقافة تتكون من تلك النماذج المتصلة بالسلوك وبمنتجات الفعل الإنساني التي يمكن أن تورث ، بمعنى أن تنتقل من جيل إلى جيل ، بصرف النظر عن الجينات البيولوجية)[19].

وتتميز هذه التعريفات بكونها تنتقي أحد أوجه الثقافة وهو التراث الاجتماعي فتركز عليه بدلاً من أن تحاول تعريف الثقافة بشكل موسع، ومما يؤخذ على هذه التعريفات كونها تصور الثقافة على أنها في حالة استاتيكية،أي جامدة لا تتطور. والثقافة دائمة التغير بما تضيفه إليها الأجيال الجديدة من خبرات وأدوات وقيم وأنماط سلوكية أو بالعكس بما تستبعده وتحذفه من بعض الأساليب والأفكار أو الأدوات القديمة التي لم تعد تتفق مع ظروف حياتها الجديدة[20].

3 – المعيارية:

يمكن تقسيم التعريفات المعيارية للثقافة إلى فئتين فرعيتين:الأولى تهتم بالثقافة كقاعدة وأسلوب،والثانية تبرز أهمية المثل والقيم. ويمثل الفئة الأولى "ويسلر" الذي يرى:"أنّ الثقافة هي أسلوب تتبعه الجماعة أو القبيلة وهو يضم كل الإجراءات الاجتماعية المقننة ، وثقافة القبيلة تتضمن مجموعة المعتقدات والإجراءات التي تتبعها القبيلة". أما الفئة الثانية فيمثلها على الخصوص "سوروكين" حيث يعتقد:" أنّ المظهر الاجتماعي للكون فوق العضوي يتكون من أفراد متفاعلين ومن أشكال من التفاعل ،من مجموعة منظمة،ومن علاقات بين الافراد وبين المجموعات منظمة وغير منظمة ، أما المظهر الثقافي للكون فوق العضوي فيتكون من المعاني والقيم والمعايير". تهتم بالثقافة كقاعدة وطريقة وأسلوب حياة يتبعها الناس في أعمالهم وأفكارهم.وما يميز التعريفات المعيارية للثقافة أنها تحي من جديد فكرة الأعراف الاجتماعية وترى أنّ القيم والمثل وحدها أهم نماذج السلوك الإنساني[21].

4 – السيكولوجية:

من بين أهم التعريفات التي تدخل في نطاق التعريفات السيكولوجية تعريف "يونغ" الذي يرى أنّ :(هذه الأساليب الشعبية المتميزة لمعالجة المشكلات والنظم الاجتماعية الشعبية، نطلق عليها الثقافة، إنّ الثقافة تتكون من ذلك الكل من السلوك المتعلم أو نماذج سلوك أية جماعة التي تتسلمها من جماعة سابقة

---

[19] سامية حسن الساعاتي ، المرجع السابق. ص.38

[20] سامية حسن الساعاتي ، المرجع السابق ، 28

[21] سامية حسن الساعاتي ، المرجع السابق، ص. 40- 42

أو جيل سابق عليها ثم تسلمها بدورها ، بعد أن تضيف إليها إلى جماعات لاحقة أو جيل لاحق).كما يوجد تعريف "سمنروكلر" الذي يرى أن: الثقافة هي مجموع أساليب تكيف الناس لظروف حياتهم ،وهذا التكيف لايمكن الوصول إليه آلا من خلال أفعال تجمع ما بين التنوع والانتقال والانتقاء"[22]. وهذا يعني أنّ الثقافة متحولة ومكتسبة ومسألة نسبية متجددة على الدوام كل جيل يضيفي عليها لمسات من طرق عيشه وظروف حياته وحاجياته.

5 – البنيوية:

تنفرد التعريفات البنيوية للثقافة بوضوح فكرة النموذج فيها ويتجلى ذلك من تعريف:" وليم أو جبرن ونيمكوف" اللذان يعتبران أن "الثقافة تتكون من المخترعات أو السمات الثقافية المتكاملة في نسق بدرجات مختلفة من الارتباط بين أجزائه ،وتنتظم السمات المادية وغير المادية على السواء حول إشباع الحاجات الإنسانية الأساسية ، وذلك لتمدنا بالنظم الاجتماعية التي هي قلب الثقافة"[23].

وتتميز هذه التعريفات بسمتين هما وجود تأكيد على العلاقات التنظيمية بين مظاهر الثقافة وابراز الصفة التجريدية للثقافة. وتكمن أهمية ذلك الفهم في أنه يحرر الثقافة من السلوك ويجردها من النشاط الإنساني[24].

6 – التطورية:

وتنطوي تحت هذا التعريف ثلاث اتجاهات هي[25]:

1 – اتجاه ينظر إلى الثقافة باعتبارها نتاج التفاعل الإنساني.

2 –اتجاه ينظر إلى الثقافة على أنها عبارة عن أفكار.

3 – اتجاه ينظر إليها بوصفها رموزاً تنتقل من جيل إلى جيل.

التعريفات التطورية تنظر الى الثقافة باعتبارها نتاج والثاني ينظر اليها بوصفها أفكار والثالث ينظرر إليها على أنها رموز وجميعها تعطي أهمية للناحية النشوئية والتطورية [26].

7 – **الشمولية** :

من أهم التعريفات الشمولية للثقافة التعريف الماركسي ، وهو تعريف لا ينظر إليها من زاوية واحدة، بل ينظر إليها من جهات مختلفة ، ويرى أصحاب هذا التعريف أنّ : كل القيم المادية والروحية

---

[22] سامية حسن الساعاتي ، المرجع السابق، ص. 42– 46

[23] سامية حسن الساعاتي ، المرجع السابق ، ص.47

[24] سامية حسن الساعاتي ، المرجع السابق، 49

[25] سامية حسن الساعاتي، المرجع السابقن ص. 49

[26] سامية حسن الساعاتي ، المرجع السابق، ص. 49– 52

ووسائل خلقها واستخدامها ونقلها التي يخلقها المجتمع ، من خلال سير التاريخ ، مع التميز بين الثقافة المادية والثقافة الروحية ،والثقافة ظاهرة تاريخية يتحدد تطورها بتتابع النظم الاقتصادية، الاجتماعية، وتتخذ الثقافة في اي مجتمع طبقي طابعا طبقيا سواء فيما يتعلق بمفهومها الأيديولوجي أو أهدافها العميقة"[27].

والملاحظ أنّ المصادر المعرفية لجميع هذه التعريفات مستمدة من الحضارة الغربية فلابد حينئذ من تحديد هذا المفهوم من داخل السياق العربي الاسلامي والذي يختلف كلياً عن الواقع الثقافي الغربي ولنبدأ بالعلامة ابن خلدون ثم ننتقل إلى المفكر الجزائري مالك بن نبي الذي له وجهة نظر متميزة بخصوص الثقافة. فقد سبق عبد الرحمن بن خلدون أراء كل من 'رالف لنتون' و'ماليونفسكي" في الأسس الخاصة بالثقافة ، فقد أوضح في مقدمته كيف أن دوافع الإنسان الفطرية هي أساس الظواهر الاجتماعية ، بل أساس الثقافة بمعناها الكامل ، كما حلل النشاط الاجتماعي وأبرز ما يحتوي عليه من ظواهر هي نفس الظواهر التي أبرزها ' ماليونفسكي' وهي ظاهرة التخصص وظاهرة تقسيم العمل وظاهرة التعاون التي بدونها لا تتحقق مطالب الإنسان فابن خلدون يرى أن الاجتماع الإنساني ضروري للتعاون من أجل الحصول على الغذاء من جهة ولدفع عدوان الحيوان من جهة أخرى". أما المفكر مالك بن نبي فيرى:" أنّ الثقافة هي توجيه الطاقات الفردية لتحقيق بناء الفرد في الداخل بالنسبة الى مصلحته ولتحقيق مكانه في المجتمع بانسجام تلك المصلحة مع مصلحة المجتمع. والتحديد هذا فيه ما يدخل في نطاق الاخلاق وفيه ما يخرج من هذا النطاق ليدخل في نطاق العلم والذي يدخل من تحديدنا في هذا النطاق الأخير قولنا : أنّ الثقافة هي توجيه الطاقات الفردية ، وليست الثقافة في غنى عن هذا الشطر من التحديد مطلقاً "[28]. فالثقافة هي الجو المشتمل على أشياء ظاهرة ، مثل الأوزان واللألحان والحركات وعلى أشياء باطنة كالاذواق والعادات والتقاليد ، بمعنى أنها الجو العام الذي يطبع أسلوب الحياة في مجتمع معين وسلوك الفرد فيه بطابع خاص ، يختلف عن الطابع الذي نجده في حياة مجتمع آخر"[29].

ويتضح من خلال هذا الرأي أن مالك بن نبي يركز على 'جو' الحياة الاجتماعية وما يميزها من أشياء ظاهرة وأخرى باطنة، وهو لا يكتف بتحديد هذه العناصر فقط، بل يربطها بالعملية التطبيقية التي ينتهي إليها التحليل ، وفي ذلك يقول: " إنّ الثقافة لا تستطيع أن تكون أسلوب في مجتمع معين ، كما ذكرنا ، آلا إذا اشتملت على عنصر يجعل كل فرد مرتبطا بهذا الأسلوب ، فلا يحدث فيه نشوز بسلوكه

---

[27] سامية حسن الساعاتي ، المرجع السابق، 52- 54

[28] مالك بن نبي : تأملات ، دار الفكر ، دمشق ، 1991م ، ص. 25

[29] مالك بن نبي : تأملات ، دار الفكر ، دمشق ، 1991م ، ص. 147

الخاص، وهذا العنصر يتمثل في العنصر الأخلاقي ، لأنّ المبدأ الأخلاقي يقوم بالضبط ببناء عالم الأشخاص ، الذي لا يتصور بدونه عالم الأشياء ولا عالم المفاهيم"[30].

ومن جانب آخر يؤكد مالك بن نبي على دور الفعالية في العملية الثقافية ، إذ لا يكفي تحديد عناصر الثقافة ومبادئها وجوانبها النفسية، والاجتماعية فحسب بل ينبغي أن تكون (الفكرة) في حد ذاتها فعالة لتحديد سلوك ونمط من أنماط الحياة، فإنّ فعاليتها ذات علاقة وظيفية بطبيعة علاقتها بمجموع الشروط النفسية الزمنية التي تنطبع بها الحضارة في المجتمع"[31]. ومع الجابري فإنه يرى بأنّ مفهوم الثقافة في السياق العربي يختلف اختلافاً جذرياً عن المعنى الألماني للكلمة والمعنى الاثنربولوجي فهو سياق يتميز بتلك العلاقة الاشتقاقية بين كلمة ثقافة وكلمة مثقف وهي علاقة لاتجدها في اللغات الأوروبية حيث تنفصل الكلمة الدالة على الثقافة " كلتور " عن الكلمة الدالة على المثقف " انتلكتويل" انفصالاً لغوياً تاماً"[32]. وعليه فإن هذا البحث يعتبر الثقافة هي كل ما يتعلق بنوعية أساليب الحياة والقيم التي يبتكرها ويتبناها الانسان لتكوين شخصيته الانسانية المتميزة وهي بالتالي تشمل كافة الانشطة الفكرية والفنية وما يتصل بهما من مهارات في تفاعل متبادل مع كافة أوجه النشاط الاجتماعي الاخرى. وكذلك فهي تشمل كافة فعاليات الانسان متضمنة كل ما أنتجه البشر في الحياة من إنتاج مادي أو غير مادي وعلاقة الانسان بالبيئة المحيطة ووطنه وابداعاته المادية والجمالية وذاكرته الجماعية والهيكل الشامل والبنية العريضة للوعي بهذه العلاقة والذاتية الجماعية.

نشأة الثقافة وتطورها:

مما لاشك فيه أنّ الثقافة البشرية نشأت مع ظهور الانسان على الارض وتطورت من عصر إلى عصر على مر التاريخ. وكلما أمعنت الثقافة التي نبحث عنها في أعماق التاريخ في القدم كلما ندر أن نجد في الحفريات مايدل عليها أو يكشف أسرارها. ومع تواصل هذه الحفريات كشفت لنا تطور ثقافة الانسان على الأرض يسميها العلماء " حفريات العقل " حيث أنها كشفت عن تطور العقل البشري ، خالق تلك الثقافة وبانيها ، فقد أمكن العثور منها على " أحجار فجر التاريخ" منذ ماقبل العصر الجليدي بمراحله الأربعة. استمر هذا التطور عبر عصور التاريخ المختلفة ولكل مرحلة ثقافتها الخاصة بها حتى حقق طفرة ملحوظة بظهور الانسان الحديث 10.000 سنة قبل الميلاد حيث ظهر الفن الهندسي الخام والاحجار واستخدام القوس والسهم والأواني الفخارية وغيرها.

خصائص وسمات الثقافة :-

---

[30] مالك بن نبي : تأملات ، دار الفكر، دمشق،1991 ص:148

31 مالك بن نبي : مشكلة الثقافة ،ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر (بيروت) دون تاريخ ، ص63

32 مُحَمَّد عابد الجابري ، مرجع سبق ذكره ، ص. 18- 19.

- **الثقافة مكتسبة:**

فهي ليست غريزية ولا فطرية ، كما أنها لا تنتقل بيولوجياً ولكنها تتكون من العادات التي يكتسبها كل فرد خلال خبرة حياته. ويكتسب الأفراد الثقافة من خلال صلاتهم وعلاقاتهم بالآخرين ، وتشير عملية التعلم والاكتساب إلى أساليب السلوك الاجتماعي المشتركة بين أعضاء جماعة اجتماعية معينة يتعلمها الفرد من خلال عملية التكيف الاجتماعي ويكتسب الطفل ثقافة المجتمع الذي تربى فيه عن طريق التعلم والمحاكاه[33].

- الثقافة متحولة وانتقالية: " تنتقل الثقافة من جيل إلى جيل على شكل عادات وتقاليد و نظم وأفكار ومعارف يتوارثها الخلف عن السلف عن طريق المخلفات المادية والرموز اللغوية، كما أنها تنتقل من وسط اجتماعي آخر وبهذا المعنى فهي تراكمية أي أن خبرات وعادات وتقاليد الجماعة تنتقل بمرور الزمن إلى الأجيال الجديدة فتتأثر بها وتؤثر فيها ، وهكذا يحدث التراكم الثقافي[34].
- الثقافة مثالية : " ينظر إلى العادات الاجتماعية التي تكون الثقافة على أنها تمثل نماذج مثالية ينبغي على أعضاء الجماعة أو المجتمع أن يحتذوها أو يمتثلوا لها ويتكيفوا معها ، وقد يكون هناك تفاوت ملحوظ بين النموذج والواقع، ولكن أهمية وجود النموذج أو المثال تبقى موجودة ومعروفة"[35].
- الثقافة إشباعية: من أهم خصائص الثقافة أيضاً إنها إشباعية بالضرورة للحاجات البيولوجية الأولية الثانوية المشتقة منها أيضاً ، ولذلك يقال أن للثقافة خاصية إشباعية، والجوع والعطش مثالان على الحاجات البيولوجية ، أما الحاجات الثانوية المشتقة فيمكن أن نطلق عليها الحاجات الاجتماعية الثقافية لأنها تظهر وتنشأ من خلال التفاعل الاجتماعي ،وتنتقل بالطريقة نفسها ، مثل الحاجة إلى الزواج ، وكذلك تدعيم العادات المتوارثة عبر الأجيال ، بينما ينجم عن قلة الإشباع أن تنطفئ العادات أو تختفي تماماً[36].
- الثقافة تكيفية: " إنّ الثقافة تتغير وتتميز عملية التغير بأنها عملية تكيفية يمكن مقارنتها على وجه ما بالتطور في علم الكائنات الحية، ولكنها تأخذ مجرى آخر، وتميل الثقافات إلى التكيف مع البيئة الجغرافية .. والبيئة الاجتماعية"[37].

---

[33] سامية حسن الساعاتي، مرجع سبق ذكره ، ص74 .
كذلك عبد الحميد محمود سعد ، دراسات في علم الاجتماع الثقافي ، جامعة المنيا ، مكتبة نهضة الشروق 1980 ، ص86.

[34] سامية حسن الساعاتي ، مرجع سبق ذكره ، ص. 76

[35] سامية حسن الساعاتي، مرجع سبق ذكره ، ص. 76

[36] سامية حسن الساعاتي، مرجع سابق ، ص. 76- 77

[37] سامية حسن الساعاتي، مرجع سابق ، ص. 77- 78

- الثقافة تكاملية : " يعد ميل المكونات الثقافية بعينها إلى أن تلتحم وتتحد لتكون كلاً منسجما هو أحد نتائج عملية التكيف، وأنّ العادات الاجتماعية تتعرض لضغوط من أجل أن تتكامل وتتناسق بعضها مع بعض ، لكن التكامل الحقيقي لا يتحقق بشكل تام ، وهناك دائما ما يسميه (اوجبرن) التخلف الثقافي الذي ينشأ من اختلاف سرعة التغيير بين العناصر المادية والعناصر غير المادية في الثقافة"[38]. وبالطبع فإنّ العناصر المادية يكون التغيير فيها أسرع منه في العناصر غير المادية.
- الثقافة انتقائية :" يتم توارث الثقافة من جيل إلى جيل ، ولكن العملية لا يمكن تصورها بطريقة آلية وحتمية بل تتم العملية عن وعي وإدراك ، ولا يمكن في أغلب الأحيان تحديد طريقة الانتقال هذه .. وخلافاً للموروثات البيولوجية التي تحدث للكائن الحي فإنّ انتقال عناصر الثقافة ينتقي منها البعض ويستبعد البعض الآخر تبعا لظروفه وحاجاته، ويجب أن نبرز هنا حقيقة جوهرية وهي أنه ليس معنى الانتقاء أن لنا اختياراً تاماً في قبول عناصر ثقافية أو رفضها ، لان هذه العناصر تعلوعلى مشيئتنا إلى حد ما، وغاية ما هنالك أن قبولنا الواعي لعناصر الثقافة يجعل لنا نوعاً من القدرة على تكييفها تبعاً لظروفنا والوقوف منها موقف الإنتماء لا موقف التلقي السلبي وهوما يذهب إليه بن خلدون من تبدل الأحوال بتبدل الإعصار ومرور الأيام"[39].
- الثقافة الجامدة: " إن حدث التغيير الثقافي ببطء شديد ، وفي نطاق ضيق ، فانه لا يدرك بسهولة ، وفي هذه الحال توصف الثقافة بالاستقرار والجمود، كثقافات الشعوب البدائية ، أو ثقافات البيئات الريفية ، ومن بين أسباب جمود الثقافة العزلة وعدم الاتصال بالثقافات الأخرى والاستفادة من خبراتها"[40].
- الثقافة المتغيرة: ذكرنا في الحالة السابقة جمود الثقافة بفعل الاستقرار والعزلة ، وأما الثقافة المتغيرة فهي نتاج حدوث التغير الثقافي بسرعة وفي نطاق واسع يمس كثيراً من مظاهر الحياة ، ففي هذه الحال يمكننا أن نصنف الثقافة بأنها متغيرة كثقافة المدينة بالنسبة لثقافة الريف ، لأنّ المدينة هيئة اجتماعية مفتوحة خلافاً للريف ، وكلكما المجتمع مفتوحاً أي على اتصال بغيره زادت التغير فيه"[41]. ولهذا نجد المجتمعات الحديثة سريعة التغير إلى درجة كبيرة بفعل الانتشار السريع والتحول والتغير الدائم للتكنولوجيات ومختلف أجهزة الاتصالات والتقنيات الحديثة.

---

38 سامية حسن الساعاتي، مرجع سابق ، ص. 79
39 سامية حسن الساعاتي، مرجع سابق ، ص. 80
40 سامية حسن الساعاتي، مرجع سابق ، ص. 84
41 سامية حسن الساعاتي، مرجع سابق ، ص. 82

وظائف الثقافة:

تقوم الثقافة بوظيفة متعددة الجوانب لصالح الفرد والجماعة ، وحسب ما مر معنا من تعريفات الثقافة وخصائصها فهي تمكن الفرد من إشباع حاجته البيولوجية والنفسية، وكما تحفظ كيان الجماعة تضمن استمرارها في الوجود.

الوظيفة الأولى: تتمثل في أنّ ثقافة مجتمع ما تمد أعضاءه بتبريرات لشرعية نمط الإنتاج السائدة ونمط التوزيع.

الوظيفة الثانية: إنها تمد الفرد من خلال إجراءات وطقوس التنشئة الاجتماعية المقبولة ، ببنية دافعة تربط هويته ، والنمط السائد في الإنتاج.

الوظيفة الثالثة: أنها تمد أعضاء المجتمع بتفسيرات رمزية للحدود الطبيعية للحياة الإنسانية.أن الثقافة استقامة في السلوك والأخلاق وتهذيب للشواعر، وهي تشمل أيضاً نواحي النشاط العادي ، كالعبادات ، والعادات والتقاليد ، إضافة إلى ذلك فهي تشمل النشاط الفكري ، كالأدب ،والعلم، والفلسفة، والفن ، بجميع أنواعه ومختلف فروعه ، فهي نتاج فكري . وعلى وجه العموم يمكن اعتبار الثقافة ابتكار واختراع في الفكر ، وهي في خدمة الإنسان.

علاقة الثقافة بالشخصية:

توجد بين الثقافة والشخصية (الفردية والجماعية) علاقة تأثير متبادل ، فكلاهما تؤثر في مكونات الأخرى وتتأثر بها ، وتتم هذه العملية داخل أي نظام اجتماعي، ولهذا تعتبر "كاردنر" KARDINER " أنّ كل نظام اجتماعي ثقافي يتميز بشخصية أساسية، ويميل كل مجتمع إلى تشكيل كل ثقافي فريد، يمكن لمجتمعات متشابهة من جهة تطورها الاقتصادي أن تكون مختلفة عن بعضها بقوة من الناحية الثقافية"[42].

وهكذا نلاحظ ان المجتمع الألماني يختلف عن المجتمع الإنجليزي ثقافيا رغم تقاربهما اقتصاديا وكذلك المجتمع الياباني يختلف ثقافيا اختلافا واضحا عن المجتمع الأمريكي رغم تقارب تطورهما الاقتصادي.

وتحيلنا هذه الملاحظة إلى أنّ النظام الاجتماعي يصبح متميزاً بثقافة خاصة ، من خلال أنماط سلوكية تزيد في انتشارها وتعميمها على الأفراد وسائل الاتصال بصفة مركزة ودائمة ، ومثلما تتمايز ثقافات المجتمعات المتقاربة اقتصاديا تتمايز أيضاً ثقافات الأفراد المتقاربة جغرافيا داخل المجتمع الواحد، فبين المدينة (أ) مثلا والمدينة (ب) تعد العادات والتقاليد والأفكار متمايزة ومختلفة عن بعضها البعض بينما المسافة بين المدينتين قد لا تتجاوز 100 كلم.وفي إطار جدلية التأثير المتبادل بين الثقافة والشخصية نجد أنّ الثقافة تؤثر في الشخصية من عدة جوانب منها:الناحية العقلية ، فالفرد الذي يعيش في جماعة

---

[42] ر-بودون ، وف .بور يكو – المعجم النقدي لعلم الاجتماع ، ترجمة د.سليم حداد ، ديوان المطبوعات الجامعية 1986 ط1 : ص . 228

تسود في ثقافتها العقائد الدينية أو الأفكار السحرية تنشأ عقليته وأفكاره متأثرة بذلك" وبدورها تتأثر الناحية المزاجية للأفراد والجماعات بنوع الثقافة التي ينشأ فيها، وتتضمن الناحية المزاجية تلك الاستعدادات الثابتة نسبيا المبنية على ما لدى الشخص من الطاقة الانفعالية والدوافع الغريزية التي يتزود بها منذ طفولته وهكذا نسمع عن بعض الجماعات والشعوب أنها تتميز بمزاج هادئ، وخلافا لها توجد شعوب أو مجتمعات كاملة يغلب على مزاجها طابع العنف والاستعداد المبكر للمواجهة. ولا بد من التوضيح أنّ الثقافة لا تغير نوع أو طبيعة الانفعالات نفسها ، بل تؤثر في كيفية التعبير عنها، أي أن الثقافة تلعب دوراً جبرياً إلزامياً في تنميط العلاقات، أي تكوين أنماط خاصة بها" فالإنسان هو صانع الثقافة ومبتكرها وناقلها ومغيرها في الوقت الذي يحدد فيه البناء الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع ، طابع النشاطات الاجتماعية البشرية ، وجوهرها فإنه هو ذاته نتاج لهذه النشاطات . ولاتوجد بالتالي ثقافة من الثقافات غير خاضعة للتغير الثقافي فهي نتاج اجتماع انساني تتحول وتتغير بتغير حالة هذا الاجتماع من حيث نمط العيش والحالة التاريخية التنموية السائدة في ذلك المجتمع.

مفهوم التنمية :

لقد تعددت المفاهيم والتعريفات المستخدمة في مجال الفكر التنموي من حقبة زمنية إلى أخري منذ مصطلح النمو والتنمية الاقتصادية مرورا بالتنمية الاجتماعية والتنمية الشاملة والتنمية المستدامة والتنمية البشرية.

إنّ أبلغ تعريف للتنمية قرأته وشدني إليه هو ذلك يعرفها بأنها "العلم حين يصبح ثقافة" وأهمية هذا التعريف ترجع في نظرنا ، ليس فقط إلى المضمون الذي يعطيه للتنمية يعكس واقع التطور واتجاهه في العالم المعاصر ، واقع الثورة العلمية التقانية وآفاقها ، بل لأنه يعطي كذلك ل "غياب التنمية" أو" التخلف" مضموناً يعبر هو الأخر أصدق تعبير عن واقع البلدان المسماة " نامية" بمعنى أنها متخلفة تسعى إلى تحقيق التقدم . وهكذا فإذا كانت التنمية هي "العلم حين يصبح ثقافة" فإن التخلف سيكون هو "العلم حين ينفصل عن الثقافة" أو هو "الثقافة حين لايؤسسها العلم" [43]. إنطلاقاً من هذا التعريف يقع تحديدنا لمفهوم التنمية البشرية في هذا البحث، بإعتبارها، عملية اجتماعية تؤسس لنشر ثقافة اجتماعية علمية وفلسفية تكرس أساليب البحث العلمي ومناهجه، نظرية وممارسة، من أجل بناء عناصرنا البشرية الفاعلة، وهي في نفس الوقت الشرط الضروري للانتماء لهذا العصر العلمي والتقاني وإستدامة التنمية البشرية وضرورة من ضرورات الأمن الوطني. إنّ مكانة العقل هي ضرورية للأمة الآمنة، تدفع الأفراد والمؤسسات الاجتماعية لاختيار الكمال والامتياز في كل الأشياء. فهاجس النوعية والمقاييس الرفيعة

[43] مُحَمَّد عابد الجابري مرجع سبق ذكره، ص. 103

ضروري لبقاء المجتمع في العالم المعاصر([44]). لاشك إن الانسان هو محور قضية التنمية وعنصرها الفعال وهو في الوقت نفسه هدفها فمنه تبدأ التنمية وتنمو كل اتجاهاتها وإليه تعود ثمارها . ومن هنا فإنّ التنمية بالمفهوم العصري الراهن تعتمد إلى حد كبير على التنمية البشرية من أجل نجاح مشاريع التنمية ومن أجل استدامتها[45].

مفهوم التغير الثقافي:

لقد اهتم الانثربولوجيون بدراسة التغير الثقافي وشكل جل اهتمامهم به هدفا أساسياً لميدان البحث في الانثربولوجيا على المستويين النظري والميداني. وهنالك تعريفات عديدة لمفهوم التغير الاجتماعي والثقافي. مفهوم التغير الثقافي هو كل ما يحدث من تغيرات في جميع قطاعات ونظم المجتمع سواء ما يتصل بالناحية المادية مثل التغيرات التكونولوجية أو ما يتصل بالناحية غير المادية مثل الايديواوجيا والقيم والأفكار[46]. بالتالي لايمكن تصور حدوث تغيرات ثقافية خارج البناء الاجتماعي أو خارج وظائفه لأنّ البناء الاجتماعي هو الاطار الايكولوجي الذي تتجسد فيه ثقافة معينة.وقد ميز غالبية الانثبرولوجيون بين التغير الاجتماعي والتغير الثقافي ، فالتغير الاجتماعي يتضمن التبدلات والتحولات التي تحدث فقط في مجال التنظيم الاجتماعي أو ما يطرأ على بناء المجتمع ونظمه الاجتماعية من تبدلات وبهذا يكون التغير الاجتماعي جزءاً من فئة أكبر وهي التغير الثقافي. وهذا يعني أنّ التغير الثقافي أشمل من التغير الاجتماعي [47].

دور الثقافة في التغير الاجتماعي:

لابد من الاشارة في البداية إلى أنّ المجتمع الدولي يعيش منعرجاً تاريخيا أصبح فيه التركيز أكثر فأكثر على مفهوم الاعتماد المتبادل الذي يعتبر الانسانية كلها مجموعة واحدة ذات مشاغل وأهداف كبرى موحدة " حماية البيئة – الحفاظ على استمرارية الحياة البشرية- قيم اخلاقية مشتركة – حوار الحضارات " . وفي هذا الاطار يأتي مفهوم التغير الاجتماعي في موقع متقدم وضرورة من ضرورات الانخراط في المنظومة العالمية وضرورة من ضرورات البقاء وكسب رهان المنافسة العالمية . التغير الاجتماعي هو التغير الذي يصيب البناء الاجتماعي الكلي في جميع مكوناته واجزائه. لقد تعددت التعريفات من قبل المختصين في علم الاجتماع حول مفهوم التغيرالاجتماعي وعليه يرى البعض من الصعوبة بمكان وضع

---

[44] أنطوان زحلان ، العرب والعلم والتقانة، سلسلة الثقافة القومية، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، الطبعة الأولى،1988، ص.68.

[45] Maider Maraña, Culture and Development, Evolution and prospects , UNESCO , Etxea, 2010.P.4- 6.

[46] عبد الحميد محمود سعيد، دراسات في علم الاجتماع الثقافي ، مكتبة نهضة الشروق ، القاهرة ، 1980 ، ص.60.

[47] عبد الحميد محمود سعد، المرجع السابق ، ص. 61- 62.

تعريف مانع جامع لمفهوم وابعاد التغير الاجتماعي "لأن كل شيء في حياتنا عرضة للتغير المستمر على الدوام ، فكل يوم في حياتنا يوم جديد وكل لحظة تمثل حدثا مستجدا في العمر. وعلى حد تعبير الفيلسوف اليوناني القديم هيرقليطس فإنّ المرء لا يستحم في النهر الواحد مرتين ، لأن النهر يتغير بجريان الماء فيه مثلما يتغير الشخص فور احساسه أو ملامسته لماء النهر .. ورغم دقة هذه الملاحظة فإننا نميل الى إسباغ طابع الثبات والديمومة ولو لفترات محدودة عل أنفسنا وعلى ما حولنا. ورغم مايحدث من وجوه التغير سواء كانت طفيفة أم كبيرة ، فإننا نظل نعتقد أن للنهر شكلاً ثابتاً ، وان للإنسان ولشخصيته ملامح تبقى على حالها من دون تغيير"[48]. ومن خلال هذا الوصف للتغير الاجتماعي نستطيع القول بأنّ التغير الاجتماعي هي مسألة نسبية لحظية، فالتغير الاجتماعي الراهن يتميز بالتسارع الهائل والمستمر بسبب تأثير العلم والتقانة على مختلف العوامل الاقتصادية والسياسية والثقافية. إن التغيرات التي تجري في عالم اليوم في مختلف دول العالم جعلت الثقافات والمجتمعات أكثر تداخلاً وقرباً واعتماداً على بعضها البعض أكثر مما كان عليه الأمر في الماضي. حيث أصبح كل منا على حد تعبير غدنز "يعيش في الساحة الخلفية للآخر" ولما كانت الحياة الاجتماعية الثقافية سمة مميزة للجنس البشري تميزه عن غيره من الكائنات الحية، هذا المجتمع البشري الدائم التغيير نتيجة لسنة الحياة الدنيا ونتيجة للتقدم العلمي والتكنولوجي المعاصر، بالتالي فإنّ عملية التنشئة واعداد الفرد منذ الطفولة للحياة المجتمعية من خلال مؤسسات الأسرة والمدرسة ووسائط الاعلام والثقافة من الضروري بمكان من أجل الحفاظ على الهوية والكيان الثقافي الذي أصبح خط الدفاع الأول بعد أن تحول الصراع من صراع عسكري واستعماري مسلح إلى صراع ثقافي يعيش داخل منازلنا وفي عقر ديارنا وهو أمر لابد منه . وعليه يجب التشجيع على الاستثمار في القطاع الثقافي من أجل إحياء التراث وتجديده وتسويقه داخليا وخارجياً .

ثقافة التنمية:

مما لاشك فيه أنّ العمل الثقافي بمعنى النشاط الابداعي بكل أشكاله يساهم بصفة أساسية في إعطاء النمط التنموي نوعية مميزة وخصوصية ذاتية لأنه يستجيب لحاجيات نوعية ضرورية يجب تلبيتها واشباعها حتى لاتقع خلخلة البنى الذاتية للمجتمع وتحل الانحرافات المدمرة. وبالتالي يصبح الجهد الهائل المبذول من أجل التنمية بدون جدوى ، إن لم يكن جهداً ضائعاً مفلساً في المدى المتوسط. إنّ توجيه الاهتمام وبذل الجهد لصالح العمل الثقافي بمعنى الابداع بكل اشكاله الفنية والجمالية والتقنية يأخذ أهمية قصوى في مجتمعنا المعاصر الذي يواجه ما يسمى بصدمة الحداثة والغزو الثقافي. وفي ها الاطار يقول وزير فرنسي سابق للثقافة جاك لانغ Lang " الثقافة هي القوام الأساسي للحركية الاقتصادية وهي أول

[48] انطوني غدنز ، مرجع سبق ذكره ، 105

صناعة تصديرية " فالتوفير أو الاستثمار من أجل الثقافة هو التوفير في الحقل الاقتصادي لما له من بعد مستقبلي يعطي للحياة كل معانيها. وعليه يمكن القول لاتوجد ثقافة بدون تنمية كما لاتوجد تنمية بدون ثقافة فكلاهما يعزز الأخر . وفي هذا الاطار يأتي دور الثقافة لتعزيز كل معاني التمكين والعدالة والاستدامة والأمن وثقافة العمل المنتج باعتباره أحد ضرورات التنمية البشرية كما تعتبر التنمية البشرية أحد ضرورات العمل المنتج. والتنمية البشرية، تعني توفير الفرص المجتمعية والبيئية والعدالة في توزيعها لنمو الطاقات الجسمانية والعقلية والروحية والابداعية والاجتماعية إلى أقصى ماتستطيعه طاقات وإبداعات الفرد والجماعة([49]). وذلك في ضوء القيم الثقافية والاوضاع الاجتماعية المعقدة في ظل التحديات الماثلة أمامنا اليوم، وهي القدرة على الإبداع العلمي والتقاني، والتوظيف الأمثل لكل أنواع التكنولوجيات المناسبة كوسيلة من وسائل القضاء على الفقر، وتوفير شروط العمل المنتج والإنتاجية العالية، والسعي الدؤوب لتأصيل معاني الديمقراطية وحقوق الإنسان هدفاً ووسيلة للمشاركة في صياغة حاضرومستقبل أفضلين.

التنمية الثقافية :

تهدف التنمية الثقافية قبل كل شئ إلى بناء الانسان معنوياً ، ومن هذا الهدف تتبلور الأهداف الثانوية حيث يبرز دور الإعلام واضحاً في تحقيق هذه الأهداف.

إنّ أهداف وزارات الثقافة ووزارات الإعلام في مختلف الدول النامية تتفق في مفهوم التنمية الثقافية. ولكن الصعوبة تبدأ مع التطبيق والتخطيط الثقافي والاعلامي . فالعمل اليومي يستوعب طاقات أجهزة الثقافة والاعلام في كثير من الأحيان فيتوه منها الطريق الذي رسمه التخطيط أو يتعذر تنفيذ أهم الأعمال الثقافية بسبب تركيز الجهد على مانشتات الصحف ونشرات الأخبار في الإذاعة والتلفزيون.

إنّ أهم الأهداف الأساسية للتنمية الثقافية إلى جانب بناء الانسان ، إثراء وجدان المواطن بالقيم الروحية والتقاليد الأصلية ومحو الأمية الثقافية وبناء المواطن المستنير الذي يبدع ويبتكر ويبني الدولة العصرية وتحقيق جو ديمقراطي حر تزدهر فيه كل طاقات الفكر الخلاق والابداع الفني. كيف نبني الانسان الحر المبدع المفكر الخلاق ؟ بأي وسيلة نصل إلى هذا الهدف ؟ ماهو الكتاب الذي يجب أن نقدمه لعقله ؟ واللوحة التي ننمي من خلالها ملكاته والفيلم والمسرحية وبقية الزاد الثقافي الذي يشبع حاجاته الروحية والمعنوية والتي لاتقل أهمية عن مطالبة المادية الأساسية[50]. وهذا يقتضي الاهتمام والرعاية من قبل الدولة بدور الثقافة وأجهزة الرعية المختلفة وتهيئة المناخ الملائم لتوفير المعرفة وتنمية الثقافة من

---

[49] حامد عمار، التنمية البشرية في الوطن العربي،المفاهيم – المؤشرات – الأوضاع ، دار سيناء للنشر ، مصر، يناير 1991.مرجع سابق، ص(43).

[50] المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الثقافة ودورها في التنمية ، ص. 77- 78

خلال المنتديات العامة للنقاش والمناظرات في النوادي ودور الثقافة ومراكز الشباب ومراكز محو الأمية[51] وغيرها من مؤسسات المجتمع المدني الناشطة في الحقل الثقافي كالاحزاب السياسية وغيرها. فالدولة في أوربا تمول الثقافة بنسب تتراوح بين 34% و 100% في بعض البلدان . كذلك انتشرت حديثاً على نطاق واسع في أوروبا وامريكا الشمالية واليابان خلال العقدين الأخيرين في رعاية المؤسسة الصناعية والتجارية والاقتصادية عموماً للثقافة ومساهمتها في تمويل الآداب والفنون والعلوم ومشاريعها ودعم الفنانيين والمبدعين وصيانة المعالم الأثرية. بل هناك بعض البلدان في محيطنا العربي منذ مطلع التسعنيات أضحت تتحدث عن تسويق المنتوجات الثقافية حيث غدت هذه العملية ذات قيمة انتاجية عالية ورافد أساسي من روافد التغيير والتنمية المستدامة.

[51] نفس المرجع ، ص 82

الخاتمة:

التخطيط لثقافة المستقبل أو لمستقبل الثقافة هو الآن من القضايا الأساسية التي تحظى باهتمام زائد في انحاء العالم "المتحضر" كافة، العالم المنخرط بهذه الدرجة أو تلك في مسلسل التطور العلمي والتقاني الذي يطبع الحضارة المعاصرة ." ذلك أنّ هذه الحضارة حضارة علم تختلف عن جميع الحضارات الأخرى التي عرفها الانسان منذ ظهوره على الارض ، بخاصية أساسية جديدة وهي التوسع والانتشار والنزوع نحو العالمية والهيمنة ، والعمل وبالتالي على ضرب الخصوصيات الثقافية بتفكيك أسسها المادية والمعنوية وتغييرها . وليست ثقافات العالم الثالث في البلدان المستضعفة في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية هي وحدها المهددة في خصوصياتها وبالتالي كياناتها ، بل التهديد أضحى يشمل حتى بلدان القارة الأوروبية "[52]. واذا نحن قللنا من أهمية التخطيط لمستقبل الثقافة وضرورته فإنّ مسألة بقاء كياناتنا هذه على حالها مسالة أضحت ضرباً من المستحيل . فالتخطيط لمستقبل الثقافة يجب أن يأخذ في حسبانة حاجتنا للحداثة والتجديد وحاجتنا الى الانخراط في عصر العلم والتقانة كفاعلين مساهمين في بناء الثقافة وفي التخطيط لها وكذلك نحن في حاجة إلى حماية هويتنا القومية وخصوصيتنا الثقافية من الانحلال والتلاشي تحت تأثير موجات الغزو الثقافي الذي يمارس علينا وعلى العالم أجمع بوسائل العلم والتقانة وبوسائل ثقافية عبر أجهزة الفيديو والسينما. ولكسب رهان التحدي والحفاظ على الخصوصية الثقافية يجب وضع هذه المتغيرات في الاعتبار عند التخطيط لمستقبل الثقافة وهو جزء من عملية صنع المستقبل والمستقبل في العالم المعاصر هو للمجموعات المتحدة المتكتلة وليس للطوائف ولا الجماعات ولا الشعوب المجزأة المستضعفة، تخطيطاً يعتمد النظرة العلمية النقدية ويستهدف إعادة ترتيب العلاقات داخل ثقافة الماضي والحاضر في الوقت الذي يعمل فيه على بناء علاقات متينة بين خصوصيتنا الثقافية والمنظومة العالمية للعلم والتقانة.

[52] محمّد عابد الجابري، مرجع سبق ذكره ، ص. 41- 46

المراجع

1. **انتوني غدنز** ، علم الاجتماع ن ترجمة فايز الصباغ ، المنظمة العربية للترجمة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، الطبعة الأولى 2005م.
2. **أنطوان زحلان** ، العرب والعلم والتقانة، سلسلة الثقافة القومية، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، الطبعة الأولى،1988م .
3. **حامد عمار**، التنمية البشرية في الوطن العربي،المفاهيم – المؤشرات – الأوضاع ، دار سيناء للنشر ، مصر يناير 1991م.
4. **ر-بودون ، وف .بور يكو** – المعجم النقدي لعلم الاجتماع ، ترجمة د.سليم حداد ، ديوان المطبوعات الجامعية 1986م.
5. **سامية حسن الساعاتي**، الثقافة والشخصية، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1983 م.
6. **السيد ولد أباه** ، اتجاهات العولمة ، اشكالات اللغية الجديدة ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، 2001م.
7. **عبد الحميد محمود سعد** ، دراسات في علم الاجتماع الثقافي ، جامعة المنيا ، مكتبة نهضة الشروق 1980م.
8. **كليفورد غيرتز** ، تأويل الثقافات، ترجمة محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة ،مركز دراسات الوحدة العربية ، الطبعة الأولى ، بيروت ، لبنان ،2009م.
9. **مالك بن نبي** ، مشكلة الثقافة ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق ، 2000 م.
10. **مالك بن نبي** ،مشكلات الحضارة، تأملات ، دار الفكر (دمشق) 1991 م.
11. **محمد عابد الجابري**، المسألة الثقافية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، 1999م.
12. **المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم** ، الثقافة ودورها في التنمية ، عن أحمد صالح البطاينة ، الاعلام الثقافي في عصر التنمية، تونس، 1996م.

المراجع الأجنبية:

13. **Maider Maraña**, Culture and Development, Evolution and prospects , UNESCO , Etxea, 2010.

14. **Tony Bennett**, Culture, Ideology and Social Process: A Reader, Set Book (LONDON: Bats ford Academic and Educational in Association with the open University Press, 1985.